

صورة الديني في أدب هرمان هسه

عمارة ككلي

جامعة مستغانم، الجزائر

الملخص:

تشغل صورة "الديني" في روايات الروائي الألماني هرمان هسه الأفق المرجعي الذي تمتح منه شخصيات الموضوع أجواءها الفكرية والسردية على حد سواء. ذلك أن معالم هذه الصورة مبنية من هذا التواشج الروحي الذي تصنعه فكرة الاعتقاد في نفس مستقبلها داخل النص ومدى تمسكه بإنسانيته في سبيل الانتصار على الطبيعة. فأي صورة "الديني" يرتجىها الروائي تشكيلا فنيا لأفقه السردية؟ وكيف يتجاوز "الديني" مع الفن والجمال؟ وأخيرا، ما هي محصلة التشكيل الفني في تخرّيج صورة "الديني" إن بصريا أو تركيبيا جماليا؟ تلك بعض الأسئلة التي نحاول مطارحتها في هذه الورقة.

الكلمات الدالة:

الدين، الجمال، الرواية، الأدب الألماني، هرمان هسه.

ولد هرمان هسه (Hermann Hesse) عام 1877 في كالف ومات عام 1962 في سويسرا. قضى هسه شبابه في مدينتي كال وبازل، تربى على النزعة التقوية، وكان من المفترض أن يدرس علم اللاهوت، وبعد إقامة دامت لمدة سنة واحدة، هرب من دراسة البروتستانتية في باولبرون وعمل في الفترة من 1899 حتى 1903 في تجارة الكتب والتحف القديمة في بازل، منذ عام 1904 أصبح هسه كاتباً حراً في بودنزيه بعد أن ظل يكتب في البداية تحت الاسم المستعار إميل زينكلير. قام برحلات عدة في أوروبا والهند، وأصبح عام 1923 مواطناً يحمل الجنسية السويسرية، في عام 1946 حصل على جائزة نوبل في الأدب. ومن أعماله:

تحت العجلة (رواية 1906).

دميان - قصة شباب إميل زينكلير (رواية 1919).

- ذئب البراري (رواية 1927).
نرسييس وجولدموند (قصة 1930).
لعبة الكريات الزجاجة (رواية 1943).
رحلة إلى الشرق (رواية 1932).
سد هارتا (رواية 1922).
الحرب والسلام، تأملات عن الحرب والسياسة منذ عام 1914
(مقالات 1946).

1 - قصة "نرسييس وجولدموند":

تجري القصة بدير "مريابون" (Mariabonn) في ألمانيا القرون الوسطى، حيث يتعهد الراهب "نرسييس" الطفل الموهوب "جولدموند" بتوجيه من أبيه الذي يعدّه حياة الرهبان تكفيرا عن عار أمه. يرتبط "نرسييس" بـ "جولدموند" ويرى فيه مستقبلا مليئا بالحياة خارج جدر الرهبان. وهكذا يسمع "جولدموند" الشاب نداء أمه وينفصل عن الدير، كي يعيش تجربة الطبيعة بكل عنفوان من خلال مغامراته مع النساء وأجواء الصعلكة. ثم لا يلبث أن يكتشف فيه أنامل النحات ويلج دروب الفن الوعرة. غير أنه يظل مذبذبا متصعلكا ولا يفطن إلى عبثية عمره الذي انقضى مجانا إلا حين لا تعباً به "أغني" (Agnès) لأنه لم يعد يتمتع بنضارة الشباب كما في العهد السالف. وعلى الرغم من عودة "جولدموند" مجددا إلى الدير ثم الفرار منه بعد ذلك؛ فإنه يستمر في طريقه: يكبو جواده وسط النهر ويقع فريسة المرض والألم، لكنه يعرف سكينه الموت بين يدي "نرسييس" حينما يطمئن إلى أن صورة أمه التي افتقدها تقوم بنحته إلى جوارها.

2 - تجليات صورة "الديني":

إن صورة "الديني" غير منفصلة جدليا عن آلام الروح التي تحدث الذات، ولذلك ألفينا هذه الصورة مرتبطة بمستويات حضور هذه المعاشة الروحية وغيابها. فنرسييس، معلم الفلسفة والدرس الإغريقي، هذا الروائي الذي ينفذ إلى أعماق الروح، يظل متمسكا بالقسم الذي قطعه على ذاته أمام الدير بأن يبقى

راهبا ومعلما للتلاميذ الذين يتوافدون إلى الدير. ومن ثمة سيشكل قطبا مرجعيا هاما في حياة "جولدموند"، لكونه سيوحي إليه الطريق الذي سيختاره: فرنسيس قد نذر نفسه "لخدمة الروح"⁽¹⁾. وهو الأمر الذي يجعل من "الديني - الروحي" حاضرا غائبا في بصيرة "جولدموند" الشاب الإنسان الناضج خلال الفترة التي غادر فيها الدير ثم عودته إليه في آخر حياته. لأجل ذلك، سنهتم ببناء صورة "الديني" انطلاقا من تجلياتها في حياة "جولدموند" على وجه الخصوص، باعتباره حاملا لصورة معلمه في ذات الوقت: وهي صورة لا تعني التماثل بقدر ما تعني اللاتماثل الذي كان دوما فاصلا بين الشخصيتين: يقول "فرنسيس" لـ "جولدموند" وهو يحاوره عن هذا الاختلاف:

"إنك فنان، وأنا مفكر. إنك تتوسد فؤاد الأم، أما أنا فأرعى القفر. إنني أستضيء بالشمس، أما أنت فتشع لأجلك النجوم والقمر. إنهن الفتيات اللائي تتسلطن على أحلامك، أما عني فهم تلامذتي..."⁽²⁾

3 - الانفصال، السر الخفي:

يبتدئ الانفصال من اللحظة التي يقرر فيها "جولدموند" مغادرة الدير في سبيل الانخراط في الحياة، وهي اللحظة التي يدرك فيها بإيعاز من "فرنسيس" أنه قد نسي فترة من حياته ترتبط بأمه. وابتداء من هذه اللحظة التي يعي فيها "جولدموند" ذلك الحضور المشرق لأمه وهو طفل ثم غيابها من البيت بعد هروبها، يتضح له أنه يسير في طريق أمه:

"كانت الحياة الغامضة هنا تتفرسه، عالم الظلمات المغلقة، غابة مخوفة بالأدغال الشائكة، مليئة كلها بالأخطار- بيد أن هذا الغموض، كان غموض الدائرة الصغيرة، الهوة الصغيرة المليئة بالتهديدات في غور عينيه اللامعتين"⁽³⁾.

كانت صورة أمه الهيولية سره الخفي الذي اكتشفه في جسد كل امرأة عبرها أو أحبها، ولأجل ذلك في كل واحدة منهن كان يكتشف ذاته (إنسانيته المقهورة)، ويكتشف في الوقت ذاته شيئا من أمه فيهن. كانت المرأة عزاءه الأمومي الذي افتقده وكانت أيضا ديرا للجمال الإلهي، ولذلك لم ينفصل الحب -

العشق عن بحثه عن الجمال. فالجمال سر إلهي تعيشه الروح، فلم يكن يطلب الجسد، بقدر ما كان يتأمل فيضه فيه (يتأمل عبارات "نرسييس" من هواشم كل امرأة أيضا)؛ وهو في كل مرة يضيف ملامح جديدة للصورة المحفوظة في الذاكرة عن أمه:

"في غضون الأيام المقطوعة على الطرقات، وفي ليالي الهوى، وفي ساعات التمني المتأججة، وفي أوج ساعات الخطر، حيث كانت المنية دانية، يتحول الوجه الأمومي تدريجيا ويغتني، فقد كان أكثر عمقا وتنوعا، إذ لم يكن وجه أمه الخاص، بل إن ملامحه وألوانه قد ألفت شيئا فشيئا صورة للأم التي ليس لها أي خصوصية إطلاقا. وجه حواء، أم البشر جميعا"⁽⁴⁾.

وبنو التفاصيل تكبر تأملات "جولدموند" الشاب الذي غدا فنانا بعد أكثر من ثلاث سنوات من المراس والتكوين في ورشة المعلم "نيكلاوس" (Niklauss). إنها لحظة التجلي التي يتعانق فيها الألم بالحب والحب بالموت: تأمل الألم الذي تخلفه تجربة الموت في عيني الفنان.

4 - تجربة الموت، تجربة التجلي:

"حينما نخلق الأشكال باعتبارنا فنانين أو نبحث عن قوانين أو نصوغ أفكارا بوصفنا مفكرين، فإننا نقوم بذلك حتى نصل إلى إنقاذ شيء من رقصة الأموات الكبرى، توطيدا لشيء يتجاوز الديمومة بقدر ما يتجاوز ذواتنا"⁽⁵⁾.

يتحول التأمل في الموت إلى هاجس يؤرق ضمير "جولدموند"، لاسيما تلك المشاهد التي يصفها السارد عن الطاعون وما انجر عنه من كوارث. غير أن أعظم تلك المشاهد هو ما ورد في أواخر القصة عند احتضار "جولدموند" وهو بين يدي "نرسييس":

"عزيزي، وهو يهمس إليه، لا يمكنني الانتظار حتى الغد. علي أن أستودعك. علي أن أخبرك لكل شيء.. أنصت إلي لحظة أخرى. كنت أرغب في أن أحدثك عن أمي، وأن أخبرك عن أصابعها المشدودة حول قلبي. كانت أعز رغبة منذ سنين وحلي الأ أكثر غموضا أن أنجز صورتها؛ كانت أقدم الصور كلها، ولذلك كنت

أحملها معي دوماً: كانت رؤية خفية من الحب. منذ وقت ليس بالقصير كان يصعب علي التفكير بأنه يمكنني أن أموت من دون أن أكون قد حددت ملامحها، وبدأ لي أن حياتي كلها لا طائل من ورائها، واليوم، تتخذ الأشياء مظهرها غريباً، عوض أن تكون يداي هما اللتان تحتانها وتشكلانها؛ فإنها هي التي تعجبني وتصنعني. لها يدان من حول قلبي تُخلصه وتفرغه. إنها تفتني وتقودني تجاه الموت فيموت معي حلبي، التمثال الرائع لحواء الأم الكبرى. إني لا أزال أراها وإذا كانت يداي تملكان القوة يمكنني أن أهملها شكلاً. ولكنها لا تريد. إنها لا تريدني أن أكشف سرها. إنها تفضل أكثر أن أموت. وإني أموت بلا ندم. وقد كان الأمر يسيراً علي بفضلها"⁽⁶⁾.

نلاحظ أن "جولدموند" في اعترافاته الأخيرة، يغدو الموت لديه مصدراً للخلق الفني إذ تتساوى رغبة النحت لصورة أمه في خياله مع موضوع الرغبة الواقع عليها النحت فعلياً. فالألم قد زال في حضور هذه الصورة المنحوتة عكسياً: وهو ما يفسر شعرية الألم حين يلي الشوق المتقد في الداخل. إنه مقام صوفي لأن الحبيب راض عن محبوبه ما دام قد تجلى إليه، ولكن هذا التجلي شاهد على العيان الذي يشاهده ولا يرضى البوح خارج المشاهدة لأنها هتك للحجاب وللسر الذي ينبغي أن يظل خفياً. وهكذا تغدو صورة الأم معادلاً للحب وللموت في الوقت نفسه؛ إذ يترك "جولدموند" "نرسييس" محترفاً بهذه العبارة: "ولكن نرسييس كيف تريد أن تموت يوماً وأنت لم تعرف لك أما على الإطلاق؟ من دون أم لا يمكن أن تحب، من دون أم لا يمكن أن نموت"⁽⁷⁾.

معنى الموت إذن مقترن بالألم ومعنى الحب مقترن بها أيضاً. ولذلك نحتاج إلى حب كبير حتى نموت: الفناء عطاء وحتى نفنى ينبغي أن نعطي من ذواتنا الفانية، لما نحت "جولدموند" صورة معلمه؛ فإنه قد فعل ذلك بحب كبير: لقد أفرغ ما فيه من الحب في معلمه وتوحد معه في صنعه وملاحمه. أما صورة أمه فظلت مستعصية الحضور حتى أفنته مع ألمه. يقول هيجل: "الحياة تتقدم نحو النفي، مع ما ينطوي عليه من ألم، ولا تغدو إيجابية قياساً إلى ذاتها إلا بتهدة

التعارض وتسكين التناقض"⁽⁸⁾. "لكن لم تكون هذه الرغبة المتأججة وهذا النقص عيباً؟ أو ليس منهما يولد كل ما يصنعه الإنسان من جمال وقداسة كي يعيده إلى الله عرفانا بالجميل"⁽⁹⁾.

لربما من هنا يمكن قراءة الأبعاد المتخفية من صورة "الديني - الروحي" في قصة هرمان هسه؛ ذلك أن شخصياته تمتح من معين الفن كي ترسم أفقا روحيا من تجليات الجمال الإلهي. وما الكشف الذي تصل إليه من المعاناة وتجربة المعنى إلا من تدفق شعورها الذي يظل موسوما بهذه النفثات الشعرية. يخبرنا "موريس بلانشو" في كتابه "الكتاب القادم" أن هسه "وهو يهني نفسه لكتابة رواية؛ فإنه غالبا ما يحاول تسويد الموضوعات بإعطائها تعبيرات شعرية. وينبغي التذكير بأن هسه قد أوضح الكثير من كتبه بعدة رسومات نائية، وفي بعض فترات حياته، يكون قد رسم مئات اللوحات، كان الفن التشكيلي لديه نظاما شافيا ووسيلة لاستيعاب ذاته..."⁽¹⁰⁾ من هنا لربما نفهم هذه الطاقة الشعرية التي يحاول أن يتحصن من ورائها السارد كي يمنح لقارئه تركيبا بصريا جميلا لا يخلو من السحر، وهو القائل - في سيرته الذاتية - "إن أكثر المهن قربا إلى قلبي هي أن أكون ساحرا"⁽¹¹⁾.

الهوامش:

1 - انظر،

Hermann Hesse : Narcisse et Goldmund, trad. Fernand Delmas, 1948, p. 84.

2 - المصدر نفسه، ص 57.

3 - المصدر نفسه، ص 76.

4 - المصدر نفسه، ص 203.

5 - المصدر نفسه، ص 192 - 193.

6 - المصدر نفسه، ص 382.

7 - المصدر نفسه، ص 383.

8 - هيغل: فكرة الجمال، ترجمة جورج طرايشي، دار بيروت ودار الطليعة، ط3، 1988،

ص 171.

9 - نرسيس وجولدموند، ص 305.

10 - انظر،

Maurice Blanchot : Le livre à venir, Gallimard, Paris 1959, p. 244.

11 - هرمان هسه: السيرة الذاتية، ترجمة محاسن عبد القادر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1993، ص 31.

الإحالة إلى المقال:

* عمارة كحلي: صورة الديني في أدب هرمان هسه، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، العدد الثالث 2005، ص 55 - 61.

<http://Annales.univ-mosta.dz>